الفصل الثانى

مدرسة التصورات العقلية

أ - سقراط:

كان من الطبيعى أمام هذا الاتجاه الغالب نحو الطبيعة عند الفلاسفة السابقين أن يتوارى الإنسان ويتضاءل الاهتمام به. أين الإنسان فى كل هذا الذى سبق؟ من العسير أن نعثر عليه.

وقد كان سقراط هو الفيلسوف الذى وجه الفلسفة إلى الإنسان بدلا من أن تظل شاخصة نحو الطبيعة، لأنه هو الذى أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، وجعلها تسير فى الأزقة والحوارى، كما قيل عنه. ومن الذى يسير على الأرض ويتجول فى الأزقة؟ إنه الإنسان. غير أن الإنسان سلوك وعقل. ومن الممكن أن يظل الإنسان يسلك فى الحياة، ويضرب فى الأرض ويسعى بالعمل للحصول على قوته وسعادته وإشباع حاجاته وتغليب مصالحه، ويتعامل مع أقرانه من الناس بالفضيلة أو الرذيلة، بالخير أو الشر، بالتقوى أو بغيرها، من الممكن أن يقوم الإنسان بهذا كله دون أن يحكم عقله أو دون أن يتأمل فى كل هذا الذى يصدر عنه. وإذا فعل الإنسان هذا من غير أن يعرضه على عقله ويتوقف عنده بالتأمل وتركيز الانتباه فيه، فإنه لا يكون قد بدأ حياته الفكرية الواعية بعد، أو يكون فى بداية متواضعة جدا لها، شبيهة ببداية الفلسفة الطبيعية عند الفلاسفة السابقين على سقراط. أما الحياة الفكرية الحقة الجديرة بالفيلسوف فلا تبدأ إلا بمحاولته فى دنيا السلوك أن يظفر بتعريفات وتصورات عقلية حول ما يصدر عنه من أفعال. تماما كما تبدأ الفلسفة التأملية الحقة بالبحث عن تصورات للظواهر والمشاهدات الطبيعية التى تجرى فى الكون وعدم الاكتفاء بمشاهدتها فقط.

وقد كان سقراط هو الذى حكم العقل فى أفعال الإنسان وسلوكياته، وحاول أن يصل إلى تعريفات أو تصورات أو ماهيات عقلية للفضيلة والرذيلة ... إلخ. ولهذا كان هو أول فلاسفة المدرسة التى يطلق عليها فى تاريخ الفلسفة اسم فلسفة التصورات والتى ضمت كبار فلاسفة اليونان الثلاثة: سقراط وأفلاطون وأرسطو.

ولن نتتبع هنا كل ما قدمه سقراط فى هذا الباب. ويكفينا فقط هنا أن ننبه إلى الطريق الذى بدأه سقراط وإلى أهمية موقفه فى تطور الحياة الفكرية بوجه عام.

ولعل هذا هو بعض ما قصده سقراط عندما قال: «الفضيلة علم» وهو الذى يفسر لنا كذلك معنى الشعار الذى اتخذه لكل فلسفته وهو «اعرف نفسك».

إلا أننا نستطيع أن نفهم هذا الشعار بحيث نجعله يتعدى مجرد المعرفة النظرية ليشمل معنى المواجهة: مواجهة النفس. فالشعار «اعرف نفسك» قد يعنى فى المحل الأول «واجه نفسك». وهذه المواجهة تمثل أسمى ضرب من المعرفة، وتحتاج إلى شجاعة أدبية وأخلاقية كبيرة، وبخاصة إذا فهمناها فى إطار إدراكنا بأن الذين سبقوا سقراط من الفلاسفة الطبيعيين كانوا قد ركبوا السهل عندما آثروا البحث فى الطبيعة على البحث فى أغوار النفس الإنسانية على عكس سقراط الذى وجه البحث فى الطبيعة فى أغوار النفس الإنسانية على عكس سقراط الذى وجه البحث إلى الإنسان وإلى عقل الإنسان ونفسه قبل البحث فى الطبيعة. لكن يبقى أن عبارة «الفضيلة علم» تشير أولا وقبل كل شىء إلى أن سقراط كان يعتقد أن الإنسان لا يكون فاضلا إلا إذا وصل عن طريق البحث والتعريف العلمى إلى التصور الكلى لهذه الفضيلة أو تلك ولمعنى الفضيلة بوجه عام.

لكننا نريد – ونحن نتتبع وقفات الحياة الفكرية عند الغربيين – أن نسأل هنا سؤالا مهمًا: هل إذا ما ترك الإنسان نفسه على سجيتها واتبع فطرته دون أن يتأمل ما يصدر عنه عقليا ودون أن يفتش عن التعريفات ويرهق ذهنه فى البحث عن الماهيات العقلية المناسبة لما يصدر عنه، هل سيكون مسلكه هذا معيبا وغير جدير به كإنسان عاقل؟ أجاب سقراط على هذا السؤال بالإيجاب وأجاب السوفسطائيون عنه بالنفى، وذلك لأنهم كانوا من أنصار الفطرة والحياة الطبيعية للإنسان. وكانوا يقولون إن كل ما يصدر عن الإنسان فى حياته الفطرية الطبيعية مقدس وإلهى، أما إذا تدخل الإنسان بعقله فإنه سيخضع الحياة «للقانون». والقانون نسبى لأن التشريع البشرى يتأثر بالظروف، وهذه الظروف متغيرة ولا أمان لها. وعلى العكس من ذلك، إذا أسلم الإنسان نفسه للفطرة، فإنه سيكون فى أمان من هذا التغير. ولكن الإنسان إذا ترك على فطرته إما أن يتبع هواه وإما أن يتبع طريق الحق والهداية. وهذا أمر لا يمكن التنبؤ به. لهذا آثر سقراط أن يكون طريقه هو طريق البحث عن الماهية والتعريف، بدلا من الاطمئنان إلى الفطرة دون تعميق لها.

والمدهش فى الأمر حقا أن «السوفسطائيين» الذين اختاروا طريق الفطرة كانوا هم الذين نـادوا بتعليم الفضيلة. أما سـقراط الذى اختار الطريق العقلـى. فقد ذهب إلى أن الفضيلة لا تعلم، لأنه يخشـى الجدل العقيم حولها، وكان يخشـى أن يقال عنه أنه يتكسـب من وراء تعليمها للناس كما كان يفعل السوفسـطائيون بمعنى أن سقراط والسوفسطائيين تبادلوا المواقـع أو المواقف فى رأيهم حول تعليم الفضيلـة. وكان من المتوقع أن يتخذ كل منهم الطريـق الـذى اختاره الآخر لكى يكون كل طريق منهمـا منطقيا مع النقطة التى بدأ منها حول الفطرة وضرورة أو عدم ضرورة تدخل العقل فى موضوع السلوك الأخلاقى.

ولكـن الـذى يهمنا من هـذا فقط هو المنهج الذى وضع أسسـه سـقراط وبصمته التى وضعهـا فى تاريـخ الحياة الفكرية. ولا يهمنا بعد هذا أن نعـرف أنه وصل إلى نتائج من منهجـه هذا فى التعريف والبحث عن الماهيـات العقلية للفضائل أو لم يصل، إذ إنه فى أغلب المحاورات التى كتبها أفلاطون وقدم فيها شـخصية سقراط كأحد المتحاورين حول الفضيلة، كان لا يصل إلى جواب قاطع أو إلى نتيجة واضحة ولكن يكفيه أن المنهج الذى اتبعـه كان هو منهج الحوار. ويكفينا نحن أن نعرف أن سـقراط وتلميذه أفلاطون قدما لنا الحـوار العقلى كمنهج خصب لتعميق الحياة الفكرية بوجـه عام. ويكفينا أيضا أن نعرف أن سـقراط كان أول من اهتم بالعقل فى الإنسـان وبالتصورات والماهيات التى يصل إليها هذا العقل. وبهذا يكون هو واضع أسـس الطريق العقلانى فى الفلسفة اليونانية، وهو نفس الطريق الذى سار فيه أفلاطون وأرسطو ومن بعدهما معظم تيارات الفلسفة الغربية وبوسعنا أن نضيف أيضا أن سقراط فى بحثه عن التصور الكلى أو الماهية كان يلجأ إلى أمثلة كثيرة يتحقق فيها هذا التصور ويكون حاضرا فيها مشـتركا بينها. وهذا هو الذى لم يجد أرسـطو مانعا فى أن يعده ضربا من الاسـتقراء وأطلق عليه اسـم «الاستقراء السقراطى». وهكذا نرى أن سـقراط قـد وضع نقطة البدء فى المنهج العلمـى وذلك عن طريق بحثه عن التعريف أو التصور الكلى والاستدلال الاستقرائى. ولا يتم اتباع هذا وذاك إلا باستخدام العقل.

وقد لاحظ سـقراط أن فيلسـوفا آخر من الفلاسـفة السـابقين عليه قد ذكر العقل وهو الفيلسوف إنكساجوراس كما أشرنا إلى ذلك سابقا. وقد أشاد سقراط بهذه اللفتة التى التفت إليها ذلك الفيلسـوف. لكن سـقراط عاب عليه أنه لم يستخدم عقله على نحو كاف، لأنه بالرغـم مـن قوله بأن العقل هو الذى يؤلف بين عناصر الكون ويفرق بينها، فإنه فى وصفه

لهذا النشـــاط ذهب إلى أن هذا كله يتم بطريقة آلية محضة، أى بطريقة غير عقلية، وهو لم يلجأ إلى العقل فى تفسـيره لحركة الكون إلا عندما لم تسـعفه التفسيرات الآلية. ولهذا نستطيع أن نقول إن إنكساجوراس لم يكن جادا فى توقفه عند العقل، وإنه سار فى الطريق العقلانى بضع خطوات فقط.

لكننا نستطيع أن نقول هذا بالذات عن سقراط نفسه. فهو بالرغم من أنه هو الذى وضع أســس العقلانية فى تاريخ الفلسفة عن طريق بحثه فى التصورات والماهيات العقلية، فإنه لم يستخدم هذا المنهج العقلى إلا حول الفضيلة وسلوك الإنسان العملى وتعريفات الشجاعة والعفــة والعدالة والتقوى .. إلخ ولم يســتخدمه فى طريق المعرفــة النظرية التى يقوم بها الإنســان فى إدراكه الواعى للكون وللأشــياء التى يزخر بها هذا الكون. فسقراط هنا وضع الأســاس فقط فى الطريق العقلانى ولكنه لم يبلغ من الطريق إلا منتصفه. أما طريق المعرفة العقلية التى يقوم بها الإنسان للكون فلم يحدد ملامحه حقا إلا أفلاطون وأرسطو على نحو ما سنرى الآن.

ويوسعنا أن نقول إن الاكتشاف الحقيقى لسقراط لم يكن العقل ولا الماهيات العقلية، بل كان النفس الإنسانية أو – بعبارة أكثر وضوحا – الفطرة الإنسانية. إنه كان مهتمًا فقط بأن يوجه مواطنيه الأثينيين إلى هذه الملكة بالذات أو إلى أن لهم نفســا أو فطرة تختلف فى طبيعتها عن الجسد الذى تسكن فيه، وكان سقراط يلح عليهم بأن يوالوا تلك النفس أو تلك الفطرة بالتربية والرعاية حتى تصفو وتشــف وتكون قادرة من تلقاء ذاتها على التمييز بين الخير والشــر، وعلى أن تصل بإمكاناتها الذاتية أو ببصيرتها إلى طريق الفضيلة والهداية. ولهذا كان الدور الرئيســى الذى قام به ســقراط يندرج تحت باب الأخلاق، ولا يدخل فى بــاب المعرفة العقلية، أما حصيلة هذا الدور فلا يمكن أن نلخصه فى هذه التعريفات التى قــد يكون وصل إليها ســقراط مــع حواريه حول بعض الفضائل، بــل دوره الحقيقى كان يتلخص فى أنه أشــعل النــار الموقدة، التى تطلع على الأفئدة: أفئــدة مواطنيه ليطهرهم ويزكيهم بها، وفى أنه أحدث فى نفوس تلامذته وقفة كاشــفة وشــككهم – والشــك دعوة للتفكير على أى حال – فيما كانوا يظنون أنه الحق والخير والجمال، وأوضح لهم أن هذا الذى يطمئنون إليه لم يكن إلا سرابا. إن هو إلا نذير.

ب - أفلاطون:

رأينا أن الفكر الغربى بدأ بالطبيعة أو الكون ثم تحول على يد سقراط إلى الإنسان واتجه إلى أهم ما فى هذا الإنسان وهو العقل، واهتم بالتصورات أو الماهيات التى يقدمها هذا العقل حول موضوع محدد هو التصورات الأخلاقية وكان برمنيدس هو أول من أشار إلى عالم الفكر بالرغم من أنه من الفلاسفة الطبيعيين. ووردت إشارة إلى العقل الكونى عند إنكساجوراس. لكن سقراط هو الفيلسوف الذى وضع أسس فلسفة التصورات والبحث فى الماهيات العقلية الثابتة.

وبمجىء أفلاطون – تلميذ سقراط – تزايد الاهتمام بهذا العالم الجديد – عالم الماهيات العقلية – وأصبح يمثل مركز الثقل فى العلاقة بين الإنسان والعالم حتى اتخذ منه أفلاطون تفسيرا للكون كله ولمعرفتنا بالموجودات التى فيه. ولأول مرة فى الفكر الغربى تتحدد مهمة الإنسان أو وظيفته فى الكون، وذلك بربطها بالمعرفة، وعلى هذا النحو تم تعريف الإنسان بأنه «الإنسان العارف» فالإنسان طلعة، ويدفعه حبه للاستطلاع والمعرفة إلى تأمل ما حوله والبحث فيه. لكن الموجودات الحسية التى تحيط به جزئية متغيرة، ولن يظفر الإنسان فى محاولة معرفته لها إلا بمعرفة ظنية غير يقينية، معرفة مضطربة متناقضة قوامها أحكام خاطئة يصل إليها تارة باستخدامه أعضاء حسية وتارة أخرى بالاعتماد على إحساسه الذاتى، لكنه لن يجنى من وراء هذا كله إلا ظلالا وأشباحا تخلق له البلبلة والشك، أما إذا أراد أن يصل إلى الأحكام الصادقة اليقينية فعليه أن يستخدم عقله، والإنسان فى حياته العادية كثيرا ما يلجأ إلى عقله فى أحكامه، لكن هذه الأحكام العقلية تكون مصاحبة للإحساس بالجزئيات، ولهذا السبب تكون نسبة تعرضها للخطأ كبيرة.

وقد أراد أفلاطون أن تكون للماهيات العقلية موضوعية خاصة بها تباعد بينها وبين أى تأثر بالذات وأى اختلاط بعالم التغير والصيرورة، فأفرد لها عالما مفارقا هو عالم المثل. وأفلاطون يعنى بالمثال الصورة أو الماهية العقلية الثابتة للشىء الحسى. وكان يعتقد أن وجود عالم المثل هذا حقيقة لاشك فيها، ولا أدل على هذا من أن الإنسان عند رؤيته للمحسوسات فإنه يتعرف عليها لأن النفس تتذكر ما رأته من مثل لتلك المحسوسات فى حياتها السابقة. ويلاحظ أيضا أننى حين أرى شيئين متساويين فى الواقع فإنى أحكم عليهما بالتساوى لمعرفتى السابقة بحقيقة المساواة أو بمثال المساواة، ولولا هذه المعرفة

السابقة لما أمكننى إصدار الحكم بتساوى هذين الشيئين اللذين أراهما أمامى الآن. ولهذا ذهب أفلاطون إلى أن النفس الإنسانية كانت لها حياة سابقة قبل حلولها فى الجسد، وأتيح لها فى هذه الحياة أن تعرف المثل أو الماهيات الثابتة الأزلية للأشياء. لكنها نسيت تلك المعرفة بعد هبوطها وحلولها فى الجسد. وإذا أراد الإنسان أن يعيد لنفسه معرفته بحقائق الأشياء وماهيتها، فليس أمامه إلا أن يتذكر الحياة السابقة التى كانت تحياها نفسه فى عالم المثل – وما يتذكر إلا أولو الألباب. ولهذا قال أفلاطون «المعرفة تذكر». وهو يعنى بهذه العبارة أن المعرفة كامنة فى النفس الإنسانية، وذلك لأنه كان قد أتيح لها أن تقف عليها فى حياة سابقة لها.

لكن ما السبيل إلى تذكر تلك المثل والماهيات الثابتة التى تعنى فى الحقيقة صور الأنواع والأجناس الكلية للأشياء؟

ليس أمامنا إلا الجدل أو الديالكتيك. والديالكتيك هو المنهج الذى يرتفع به الإنسان من المحسوس إلى المعقول دون أن يلجأ فى هذا إلى أى شىء محسوس وإنما عن طريق الانتقال من فكرة إلى فكرة أخرى بواسطة فكرة ثالثة متوسطة تكون بمثابة حلقة الاتصال بين الفكرتين. وهذا يعنى أننا إذا قمنا بدراسة فكرة معينة فعلينا أن لا نكتفى بالوقوف عند هذه الفكرة الأولى، بل من واجبنا أن نردها إلى فكرة أخرى أعم وأشمل، وهكذا حتى نصل إلى فكرة تكون أعم الأفكار جميعا وأعلاها مقاما، وهى مثال المثل كلها، أو صورة الصور العقلية كلها، ألا وهى مثال الخير عند أفلاطون، ويشبه أفلاطون فى إحدى محاوراته وهى محاورة الجمهورية هذا المثال بالشمس فى العالم المحسوس. فمثال الخير يضفى على عالم المعقولات من الضوء ما يشبه ذلك الضوء الذى ينبعث من الشمس على عالم المحسوسات.

والصورة التى رسمها لنا أفلاطون فى الكتاب السابع من محاورة الجمهورية تقرب لنا حركة هذا الديالكتيك، وذلك فيما أسماه بأسطورة الكهف أو المغارة.وفيها قدم أفلاطون أناسا يعيشون فى كهف مظلم منذ ولادتهم، ولهذا الكهف فتحة تطل على الطريق يمر عليه البشر حاملين أمتعتهم ووراء الطريق نار مشتعلة تعكس أشباح هؤلاء المارة على جدار الكهف المواجه لفتحته المطلة على الطريق. ولما كان سجينو الكهف مقيدين بسلاسل تمنعهم من الحركة وتجعلهم دائما شاخصين بأبصارهم إلى جدار الكهف المواجه لفتحته، فإنهم لن يروا على هذا الجدار إلا أشباحا تتراقص وظلال تتمايل للمارة الذين يمشون على

الطريق ولكل الموجودات التى فى العالم الخارجى. وسيظنون أن هذه الأشباح والظلال هى الحقيقة. وسيستمرون على حالهم هذه حتى إذا ما استطاع أحدهم أن يفك أغلاله وينطلق إلى الهواء خارج الكهف فإنه سيذهل مما يرى، ويشاهد الناس الحقيقيين والموجودات الحقيقية، وستعتاد عيناه رؤية الضياء كما اعتادت من قبل رؤية صور الأشباح والظلال. وسيعود إلى أصحابه فى الكهف يرشدهم إلى أنهم يعيشون فى عالم يظنونه عالم الحقيقة لكنه ليس إلا مجرد ظل. والحركة التى ينتقل بها السجين الذى أطلق سراحه من الكهف إلى العالم الخارجى هى حركة صاعدة ويقابلها الحركة التى يعود فيها إلى الكهف مرة أخرى. وهى حركة هابطة. والحركة الصاعدة تمثل عند أفلاطون الديالكتيك الصاعد. والحركة الهابطة تمثل الديالكتيك الهابط أو النازل.

وقد أراد أفلاطون من وراء رسمه لهذه الصورة الرمزية أن يقول لنا إن الكهف يرمز إلى عالم المحسوسات وأن سجينى الكهف هم الناس العاديون فى حياتهم اليومية الجارية وأن السلاسل التى قيد بها هؤلاء السجناء مثل القيود التى تشدنا جميعا نحن البشر إلى الحياة المادية الحسية، وأن عالم الحس ليس إلا ظلا لعالم الحقيقة أو عالم المعقولات. أما العالم الخارجى الذى يخرج إليه الطليق فيواجه فيه الشمس والضياء والهواء فهو يرمز فى الأسطورة إلى عالم المثل والمعقولات بالقياس إلى عالم الظلال والأشباح التى تتراقص على جدران الكهف وهو يرمز إلى عالم اللاحقيقية أو عالم المحسوسات الذى ينصحنا أفلاطون بالابتعاد عنه وذلك باستثارة قوانا العاقلة دائما وممارسة إدراكاتنا الذهنية والتدريب المستمر على مفارقة عالم المحسوسات وعلى التطلع - فى ضرب من العروج أو المعراج - إلى عالم المعقولات. ولكن هذا الصعود لا يستمر طويلا، إذ إن الإنسان بعد أن يصعد إلى عالم المعقولات فى حركة الديالكتيك الصاعد، عليه أن يهبط من جديد إلى عالم المحسوسات ليراها فى ضوء جديد، تماما على نحو ما فعل سجين الكهف الذى خرج منه وعاد إليه مرة أخرى.

وهكذا اكتسبت الحقيقة وجودا موضوعيا عند أفلاطون عن طريق نظريته فى المثل. فنظرية المثل عند أفلاطون نظرية فى اليقين الذى له وجه شبه كبير باليقين الرياضى الثابت المفارق. وفيها الإجابة عن هذا السؤال: كيف أصبحت تصوراتنا الذاتية العقلية نماذج للحقيقة من ناحية وصدى لها من ناحية ثابتة؟ إنها نماذج لها لأنها قبس من عالم

المثـل الموضوعية، وصدى لها أيضا لأنهـا تذكر لها. وعن طريق هذه النظرية أصبح العلم ممكنا، وأصبحت المعرفة اليقينية للعالم فى متناول الإنسان.

نخلـص من هذا إلى أن أفلاطون قال بوجود عالمين: عالم الحقيقة وهو عالم المثل من ناحية، وعالم الأشـباح والظلال وهو عالم المحسوسـات من ناحية ثانية. ولكن فى داخل هذا العالم الأخير: عالم التغير الدائم والصيرورة المسـتمرة والسـيلان الذى لا ينقطع. هذا العالم الذى لا يولد فيه شـىء إلا ريثما يفنى أو العكس، ولا يتحرك فيه متحرك إلا ريثما يسكن أو العكس، ولا يظهر فيه شىء إلا ريثما يختفى، عالم العناصر الأربعة التى لا تقف اسـتحالاتها وتغيراتهـا عند حد، فى داخل هذا العالم أو ربمـا فوقه يوجد عالم ثالث هو ما أطلق عليه أفلاطون اسـم «المادة»: المادة الأزلية التى تكون كالوعاء لكل الاسـتحالات الحسية التى نشاهدها فى العالم المتغير. وهذه المادة الأزلية تتحرك حركة أزلية منذ القدم وتمثـل نوعا من التهيؤ لقبول وجودات الأشـياء. وهى مزودة بما يسـميه أفلاطون «نفس» العالم التى تمثل مصدر الحركة لكل الأجرام السماوية ومصدر هذا النظام والانسجام اللذين نشـاهدهما فى الكون, والله عند أفلاطون هو المهيمن على هذا النظام كله بالرغم من أزلية المادة وقدم الكون. لكن الله لا يتصل بالمادة اتصالا مباشـرا، ولهذا فقد عهد بهذه المهمة للصانع، وهو أقل مرتبة منه، لكنه هو الذى يبعث الحركة فى المادة.

تلك فكرة سـريعة عما قدمه أفلاطون حول الحياة الفكرية للإنسان وتصوره للعلاقة بين الإنسان والعالم. ولكن يبقى أن نقول إن الأثر الكبير لأفلاطون فى الفكر الغربى لم يكن فى جانب المعرفة أو العلم، بل كان فى جانب الأخلاق والإصلاح السياسـى. وكان مشـروعه محاولة لتطبيق آراء أسـتاذه سـقراط فى الواقع العملى. وكان نقده للمعرفة الحسية شبيها بابتعاد سـقراط عن الآراء الشـائعة لمواطنيه حول الفضيلة. وبوسـعنا أن نلاحظ أيضا أن نظريته فى التذكر وفى المثل ما هى إلا تنمية لأقوال سـقراط فى الفطرة الإنسـانية، تلك الفطـرة التـى يصعب على أى مصلح سياسـى أن يعتمد عليها وحدهـا إلا فى «مدينة» أو جمهوريـة مثالية كمدينة «زيوس» كبير آلهة اليونـان التى أقيمت فوق جبال الأوليمب أو كمجهورية أفلاطون التى حاول أن يقيمها على أرض الواقع.

جـ - أرسطو

أرسـطو فيلسوف يعيش على أرض الواقع المحسـوس ومع الناس العاديين فى الحياة وفى المجتمع. فإذا كان الواقع المحسـوس مضطربا ومختلطا ومعرفتنا له مشـكوك فيها،

فإنــه علــى أى حال ليس ظلالا وأشــباحا، بل هو واقع ينتظر أن يشــرق عليه نور العقل وصوره الذهنية، لكن دون أن يؤدى هذا إلى أن يغادره الإنســان على نحو ما يغادر علماء الرياضة الأرض الواقعية ليقدموا لنا تجريداتهم. وإذا كان الإنسان العادى يصدر فى حياته أحكامــا انفعالية ومتناقضة وســريعة، فالعلاج هو أن نخضــع تلك الأحكام للمنطق، لا أن نملى عليه من علٍ تصورات مثالية نلزمه بها وعلينا كذلك أن نبصره بالدســتور الذى يؤطر حياته، فعلينا أن نلاحظ أن هذا الواقع ليس كله أشــياء مادية أو محسوســة، بل هو واقع يضم النبات والحيوان، وهذه المخلوقات لها حياة تتميز بأن الإنسان العادى لا يتجه نظره إليهــا مــن أجل غاياتها التى تحققها له، فالنبات له ثمــار وحصاد يمثلان علته الغائية، والحيوان يولد وينمو ويتكاثر، وبهذا فإن حياته كلها خط غائى، تتعاقب مراحله، وتمثل كل مرحلة منها فترة تمهيدية يختزن فيها الحيوان طاقته الكامنة التى تساعده فى الانتقال إلى مرحلة جديدة يجعل منها غايته التى يسعى فى الوصول إليها.

هذا هو أرســطو، اســتبدل بنظرية المثل عند أفلاطون التى يعلو وجود كل مثال منها على وجود كل الأشــياء المحسوســة التى يوجد هذا المثال متحققا فيها – استبدل أرسطو بهذه النظرية نظرية الصور الذهنية البشــرية، وقدم لنا نظريته الشــهيرة فى المعرفة التى تقــوم علــى تلازم الصورة بالمادة أو بالهيولى، فهذا الكرســى الذى أجلس عليه مكون من هيولى أو مادة وهى الخشب الذى صنع به الكرسى وصورة وهى عبارة عن الهيئة أو الشكل الــذى اتخذه الكرســى حتى أصبح صالحا لأن أجلس عليــه والذى كان بطبيعة الحال فى ذهن النجار الذى صنعه. وهكذا فى ســائر الأشــياء الأخرى. وأرسطو هو أيضا عالم المنطق الذى أسس هذا العلم ليخضع التفكير لقواعد تجنبه الزلل والخطأ. لكن الأمثلة التى قدمها لهذا التفكير المنطقى كانت كلها مقتبسة من أرض الواقع المحسوس سواء كان واقعا ماديا وكونيا أو واقع النبات والكائنات الحية. والواقع الأول ألف فيه كتبا كثيرة تناولت السماء والأفلاك (الآثار العلوية) والكون والفساد (الوجود والعدم)، والواقع الثانى قدم لنا فيه كتبا فى النبات وتنفســه وإحساساته، وكتبًا أخرى فى الحيوان تناولت تاريخ الحيوان وأجزاء الحيوان وحركة الحيوان وتوالد الحيوان.

إلــخ. وهو أرســطو عالم الأخلاق والسياســة الذى قدم لنا كتبــه المعروفة فى الأخلاق والسياسة والدساتير الأثينية.

وإذا كان الخط الذى سار فيه أفلاطون فى فلسفته كلها هو الخط التجريدى المثالى الذى يميز تفكير علماء الرياضيات مما حداه إلى أن يكتب على باب مدرسته المسماه بالأكاديمية «من لم يكن مهندسا فلا يدخل علينا» فإن الخط الذى سار فيه أرسطو فى فلسفته كلها هو خط علماء النبات والحيوان والتاريخ الطبيعى وقد قدمت له دراساته فى هذا المجال رؤيتين فلسفيتين هما: الرؤية التجريبية والرؤية الغائية، وهما الرؤيتان اللتان طبعتا فلسفته كلها بطابعها، وقدم لنا بسببها منهجه الاستقرائى ونظرته الغائية فى الميتافيزيقا أو علم ما بعد الطبيعة.

وإذ كانت الكائنات الحية لا تنتقل فى حياتها من مرحلة إلى الأخرى إلا بعد أن تكون اختزنت طاقاتها الكامنة التى تهيئ لها هذا الانتقال فإن ثمة قانونا عقليا يفسر لنا هذا الانتقال ويشرح لنا قوانين الحركة فى كل أجزاء الكون، ألا وهو قانون القوة والفعل، فالطفل طفل بالفعل ورجل بالقوة، وهذه الشجرة غير المثمرة الآن غير مثمرة بالفعل لكنها مثمرة بالقوة، وهذا الجسم المتحرك الآن متحرك بالفعل لكنه ساكن بالقوة، وكل كائن حى حياته بالفعل ولكنه ميت وفان بالقوة. وهكذا وعلى هذا فإن الوجود بالقوة فى الشىء أو فى الشخص يمثل استعداده أو إمكانيته التى تهيئ له الانتقال من حالته التى هو عليها الآن إلى الحالة الجديدة التى تصبح حالته بالفعل.

هذه الصورة السريعة التى رسمناها لفلسفة أرسطو بحاجة إلى بعض التفاصيل التى من شأنها أن تبرز بصفة خاصة الإضافة التى أضافها أرسطو إلى تصور العلاقة بين الإنسان والعالم أو تصور معرفته له، وهو ما يهمنا هنا بصفة خاصة.

فمعرفة الإنسان للعالم عند أرسطو لا تتبع فى حركتها حركتى حركتى الديالكتيك الصاعد والديالكتيك الهابط اللذين وجدناهما عند أفلاطون، بل تتم أولا عن طريق مجموعة من المبادئ العقلية الأولية (أى التى لا تحتاج إلى التجربة للتحقق من صدقها) التى ينشرها العقل على كل الموجودات فتنتظم فيها وتتم معرفة الإنسان لها، ويعد أرسطو هو مؤسس علم الميتافيزيقيا أو علم الفلسفة الأولى، وهو العلم الذى يحدد المبادئ العقلية العامة للوجود، وفى تعريفه لهذا العلم قال أرسطو إنه العلم الذى يقوم بدراسة الوجود بما هو موجود، وذلك لأنه إذا كان كل علم يستقل بدراسة الموجودات المختلفة للوقوف على عللها فإن هذا العلم يقدم لنا المبادئ العامة للموجودات كلها أو للوجود بإطلاق، وبوسعنا

أن نقول إنه العلم الذى يهتم بدراسة العلل الأولى بينما توجه سائر العلوم الأخرى أنظار العلماء إلى دراسة العلل الثوانى التى تتناول مثلا دراسة المادة وحركتها (علم الفيزياء) أو خواصه (علم الكيمياء)، أو تتصل بالأشكال والأجسام من حيث إنها كم منفصل (علم الحساب وعلم الأعداد) أو من حيث إنها كم متصل (الهندسة).. إلخ ودراسة تلك المبادئ العامة للوجود ككل هى التى تجعل الوجود موجودا، لهذا فإن تعريف الفلسفة الأولى بأنها العلم الذى يدرس الوجود بما هو يعنى الوقوف على تلك المبادئ الأولى وذلك كالمبدأ الذى يقول «المساويان لشىء ثالث متساويان فيما بينهما»، أو مبدأ عدم التناقض الذى يمنعنا من أن نصف الشىء الواحد بالصفة ونقيضها فى نفس الوقت ومن جهة واحدة، وكمبدأ الصورة والهيولى الذى يقول إن الصورة هى المبدأ الأهم فى وجود الأشياء لأنها تحدد لنا ماهية هذا الشىء الذى نعرفه بها وهى مبدأ وحدة الشىء أو الكائن، وذلك لأنها تقدم الكلى أو العناصر المشتركة الثابتة التى تمثل الإطار العام الذى نتعرف به على جميع الأشياء أو الكائنات التى تدخل فى هذا الإطار، أما المادة أو الهيولى فمتغيرة. فصورة الإنسان هى ماهيته. أما مادته أو الهيولى فمتغيرة تتغير معالمها من شخص إلى آخر، يتغير لونه وحجمه وطوله... إلخ، ولهذا ذهب أرسطو إلى أنه «لا علم لنا إلا بالكلى» أى أننا إذا أردنا أن نعلم حقيقة الأشياء فلابد لنا من الوقوف على صورتها الكلية التى تمثلها ماهية النوع الذى تنتمى إليه، وهذه الصورة الكلية هى «مثال الشىء» إذا أردنا أن نستعمل التعبير الأفلاطونى، لكن أرسطو بدلا من أن يجعل الصورة منفصلة عن المادة فى مثال مفارق جعلهما متلازمين والمادة أو الهيولى هى التى تحدد الماهية، وهى التى تجعل الصورة جوهرا محددا معينا وبدونها تكون الصورة لا متعينة، ومن أمثال هذه المبادئ العقلية العامة التى جعل منها أرسطو أسس إدراكنا لحقيقة الأشياء وماهياتها مبدأ القوة والفعل الذى أشرنا إليه سابقا، ومن أمثالها أيضا «المقولات» العقلية أو القوالب التى تنتمى إليها كل الأشياء فى الكون، وذلك كالمكان (الأين) والزمان (المتى) والكم والكيف والعلاقة.. إلخ، إذ إن معرفتنا لشىء معين لابد أن تجرى فى جزء من المكان وفى فترة زمانية، ولابد أن نقف على كمه وكيفه.. إلخ، وفى حديث أرسطو عن المكان يفرق بين المكان الخاص والمكان العام، فالمكان الخاص أشبه شىء بالوعاء الذى يحوى جسما معينا ويعرفه بأنه الحد الباطن للحاوى الملامس مباشرة للجسم المحوى، أما المكان العام فهو المكان الذى

لا يحويه مكان آخر وهو السماء الأولى التى لا يوجد خارجها خلاء، أما حديثه عن الزمان فهو مرتبط بالحركة لأن الزمان هو مقياس الحركة، لكن هناك إلى جانب الأزمنة الخاصة، هناك زمان واحد مشترك بينها هو الزمان العام.

والتحديدات أو التعيينات التى تتخذها الموجودات المختلفة فى الكون تتناول الوقوف على تلك المبادئ العقلية العامة التى تنتظم جميع الموجودات، وتتناول الصورة المشتركة بين جميع أفراد النوع الواحد منها، ووقوفنا على هذه المبادئ العقلية أو العلل الأولى للأشياء سينتهى بنا حتما إلى علة العلل لها وهو وجود الله الذى يمثل العلة الغائية التى تتجه إليها كل الموجودات فى رحلة شوق وعشق، وكل هذا يكون موضوع علم ما بعد الطبيعة أو الميتافيزيقيا، أما دراستنا لتحديدات وتعيينات الموجودات فسينتهى بنا إلى علم الطبيعة وهو الذى يتناول المادة التى يتفرد بها هذا الشىء عن ذاك الآخر.

والعالم عند أرسطو ينقسم إلى عالمين: ما فوق فلك القمر وهو عالم الأفلاك التى تتحرك حركة دائرية متصلة، وعالم ما تحت فلك القمر وهو عالم الكون والفساد، ويغلف العالم الأول مادة خاصة هى الأثير، وهذه المادة هى التى تتكون منها مادة الأجرام السماوية التى توجد فى السماء الأولى وفى الأفلاك السماوية الأخرى، والسماء الأولى تتحرك بفعل الشوق المتجه إلى الله، أما الأجرام السماوية الأخرى فتتحرك بتأثير النفس المزود بها كل فلك، أما عالم ما تحت فلك القمر فيتركب من العناصر الأربعة المعروفة، وحركته ليست دائرية بل رأسية: إما إلى أعلى وإما إلى أسفل، وكل ما فى هذا العالم تحكمه علل ربع: العلة المادية (المادة التى يصنع منها الشىء)، والعلة الصورية (صورة الشىء)، والعلة الفاعلة (الصانع الذى صنع هذا الشىء)، والعلة الغائية (الهدف الذى نحصل عليه من وراء صنع هذا الشىء).

وإلى جانب الموجودات المادية والأشياء المحسوسة غير الحية يولى أرسطو عالم الكائنات الحية اهتمامًا خاصًا، وعلة الحركة فى الكائنات الحية تتمثل فى النفس، وهى ليست جسما ولكن لا وجود لها إلا فى جسم، وهى التى تنقل ما فى الجسم من قوى من حالة القوة إلى حالة الفعل، أى من كونها مجرد استعدادات إلى تحققات فى أول درجات سلم التحقق، ولهذا يعرفها أرسطو بأنها كمال أول لجسم طبيعى آلى ذى حياة بالقوة، وهو يقصد بقوله إن النفس كمال أول «أنه كمال أولى أو تمهيدى» أى أنه كمال فى أول

سلم الكمال، ويقصد بقوله «لجسم طبيعى آلى» أنه الجسم الذى تكون حركته من ذاته فى مقابل الجسم الصناعى الذى تكون حركته قسرية تقع عليه من الخارج، ويقصد بقوله «إنه ذو حيـاة بالقوة» أن نشـاطه الحيوى يعبر عن قواه الذاتيـة الكامنة فيه، وعلى هذا النحو تكون النفس هى علة صورية وفاعلة وغائية.

ولكن تعريف أرسطو للنفس لا يكتمل إلا ببيان أنواع النفوس عنده، فالنفس بالرغم من أن لها تعريفا واحدا فإن هناك أنواعًا من النفوس، وأبسـط أنواع النفس هى النفس الغاذية التى توجد فى جميع الأحياء من نبات وحيوان وإنسـان، ثم تليها النفس الحاسة التى لا توجد فى النبات وتوجد فى الحيوان والإنسان، وتشتمل على الذوق والشم والسمع والبصر والشـعور باللذة والألم والرغبة والنزوع والتخيـل والتذكر، وأرقى أنواع النفوس هى النفس العاقلة التى توجد فى الإنسـان فقط، ومعنى هذا أن الإنسـان بـه الأنواع الثلاثة: النفس العاقلة والحاسـة والغاذية، والحيوان يوجد به نوعان فقط: النفس الحاسـة والغاذية، أما النبات فلا يملك إلا النفس الغاذية، فقط بوظائفها المعروفة وهى التغذى والنمو والتولد.

والنفس صورة الجسد، والجسد مادتها، لكنها تختلف فى وجودها فيه عن كل الصور الأخرى، إنها لا توجد فيه كوجود الربان فى سفينته وإلا أصبحت جسمانية، وبالرغم من ذلـك فإن مصيرها مرتبط بمصيره بمعنى أنـه عندما يفنى فإنها تفنى هى الأخرى، ولذلك فالنفس عند أرسطو ليست خالدة على عكس ما ذهب أفلاطون، لكن دورها مهم أثناء حياة الجسد لأنها هى التى تشكل مادة الجسد، وهى التى ترتفع بنشاطاته حتى تبلغ به درجة الإحساس ثم التفكير العقلى.

هـذا عن دور النفس الفردية فى الجسـد، لكن إلى جانب النفـوس الفردية، هل قال أرسطو بنفس للعالم كما فعل أفلاطون؟ لا، إنه لم يكن بحاجة إلى هذا القول مادام كل ما فى الكون يتجه عنده فى رحلة شـوق وعشـق إلى الله، وهذا الاتجاه هو الذى يوحد بين جميع أجزاء العالم ويسبغ على الكون كل وحدته.

سـؤال آخر: هل يستطيع العقل الفردى أن يدرك بنفسـه الصور والماهيات المعقولة؟ لقد رأينا أفلاطون يقول بالتذكر ويذهب إلى أن النفس كانت لها حياة سـابقة كانت فيها قادرة على إدراك المعقولات، وعندما هبطت إلى الجسد نسيت حياتها السابقة، وقدرتها على إدراك تلك المعقولات بعد هذا مرهون بقدرتها على التذكر، أما أرسطو فقد بدأ بإنكار

تلك النظرية، وقدم لنا بدلا منها نظريته فى العقل الفعال، وخلاصتها أن العقل الإنسانى أو النفس العاقلة عاجزة بذاتها عن إدراك المعقولات الخالصة، وكل ما تستطيع أن تدركه ليس إلا معقولات مختلطة بكثير من الخيالات والأوهام والإحساسات، وهى بحاجة إلى جهد كبير حتى تستطيع أن تخلص نفسها من تلك الخيالات والأوهام وتصل إلى إدراك المعقولات الخالصة، لكنها مهما فعلت فى هذا السبيل فإنها لن تصل إلى هذه الغاية بقدراتها الخاصة، بل لابد لها من مساعدة عقل إلهى خاص يطلق عليه أرسطو «العقل الفعال» وهذا العقل لا يدخل فى تركيب الإنسان، وليس جزءا من الجسم الإنسانى، ولا من النفس الإنسانية، بل هو سابق فى وجوده على الاثنين، وهو وحده الذى يستطيع أن ينقل العقل الإنسانى إلى إدراك المعقولات، وذلك لأن هذا العقل إذ ترك وحده فإنه سيظل دائما عقلا بالقوة، مجرد استعداد عام لإدراك المعقولات، ولكنه لا يصبح قادرا على إدراكها بالفعل إلا بمعونة هذا العقل الفعال.

ولا شك أن نظرية العقل الفعال عند أرسطو ليست إلا وسيلة جديدة لإحياء نظرية المثل الأفلاطونية فى تصور العلاقة بين الإنسان والعالم، بالرغم من أن أرسطو قد هاجم تلك النظرية وأنكرها، وذلك لأن هذا العقل هو واهب الصور العقلية فينا، لكن أرسطو لم يقل لنا إن هذا العقل الفعال فعال لما يريد. واكتفى بأن وصفه فقط بأنه المحرك الذى لا يتحرك، وذلك لأن العالم عند أرسطو أزلى قديم غير مخلوق، ومادته قديمة وأزلية كذلك، والعلة التى يحتاجها فى أول وجوده ليست علة خالقة أو موجودة له، بل هى علة محركة له فقط، تدفعه دفعة أولى، وهذه العلة هى المحرك الأول، لكن من الواضح أن هذا المحرك الذى لا يتحرك هو والعقل الفعال يختلفان عن الله الذى لا إله إلا هو: مالك الملك، خالق كل شىء.

وبعد أرسطو ظهرت فى بلاد اليونان وفى العصور الوسطى الأوربية مدارس واتجاهات فكرية قدمت حول العلاقة بين الإنسان والعالم تصورات كانت فى معظمها اقتباسا من هذه الفكرة أو تلك مما تناولناه حتى الآن عند اليونان، أما عن توجهات تلك المدارس والاتجاهات فى الحياة الفكرية العامة، فليس من شك فى أنها كانت أخلاقية ودينية فى المقام الأول على نحو ما كانت الاتجاهات الفكرية التى سادت كذلك فى العصور الوسطى المسيحية والإسلامية.